

المقطف

الجزء الرابع من المجلد التاسع والعشرين

١ ابريل (نيسان) سنة ١٩٠٤ - الموافق ١٥ محرم سنة ١٣٢٢

فلسفة سينسر

قضت علينا وفاة سينسر بما كنا نتعاماه ونخشى دخوله حماه وهو بطل الكلام على فلسفته لما فيها المصطلحات العلمية والفلسفية التي لا مثيل لها في العربية ولا يسهل نجت كلمات تني بمعناها وتكون مما تألفه الاسماع . ولانّ المباحث الفلسفية يصعب ادراكها على من لم يمارسها معها حاول الكاتب البسط والاسهاب

ومدلول فلسفة سينسر بسيط جداً وهو ان كل هذا العالم الذي تراه عيوننا من سديم السماء الى الانسان سيد المخلوقات وكل ملاساته من الحركات الطبيعية التي تتحركها الكواكب في افلاكها الى حركات دقائق الدماغ التي تتولد منها الافكار - كل ذلك متولد من المادة والقوة . واذا وجدت الآن دقائق المادة التي تكون هذا العالم منها ودقائق القوة التي فيه في مكان آخر ومضى عليها مقدار الزمن الذي مضي على العالم من حين وجوده الى الآن تكون منها عالم مثله تماماً . كأنه يجب ان كل ما حدث لا بد من حدوثه مع فرض المادة والقوة او كأنه سمع ابا العلاء المرعي يشد قوله

بريك ايها الفلك المدار اقصدا ذا السيرام اضطرار

فقال بل هو اضطرار جرياً على ناموس في طبيعة المادة والقوة المتصلة بها . اما الوصول الى هذه النتيجة فليس بالامر السهل بل فيه من دقيق المباحث ما يتعذر تلخيصه في مقالة او مقالات ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله

من اللب التي يتلى بها الاولاد قطع من الخشب مختلفة الاشكال على كل منها صورة جزئية فعلى القطعة الواحدة مثلاً صورة رأس وعلى الثانية صورة يد وعلى الثالثة صورة

رجل او غصن من شجرة او عجلة من مركبة او حائط من يت او قطعة من سفينة او جانب من جبل . ويُعلم باقل نظر ان هذه الصور الجزئية اجزاء من صورة كلية فيجلس تركيبها بعضها مع بعض وانت تغير اوضاعها الى ان تنظم منها الصورة الاصلية الكاملة

وهذا شأن الموجودات التي نراها في هذا الكون الواسع فقد بين التيلسوف سينسر انها كلها اجزاء من صورة واحدة كلية او من كائن واحد كلي والنواميس التي تحسبها خاصة بكل جزء منها او بفرق من اجزائها انما هي تنوعات او فروع من ناموس عام شامل لها كلها . هذا هو مغزى فلسفته وقد وصل اليه بعد البحث والاستقراء الطويل واقام الادلة على صحته . ولم يقصد بهذه الفلسفة ادراك حقيقة الموجودات ولا ادراك مبدئها ومعادها اي ما كانت عليه قبل ان

صارت في الصور التي نراها فيها وما تصير اليه اخيراً بل ادراك الاحوال التي هي فيها وقد قسم الموجودات كلها الى قسمين ما يمكن ان يدرك بالعقل وما لا يمكن ان يدرك بالعقل . ورد كل المسائل المتعلقة بواجب الوجود وعلّة العلة او العلة الاولى والغاية الاخيرة الى الدين او الى ما هو وراء الطبيعة او الى ما لا يدرك بالمثل البشري لان العقل مقبّد في بحثه يتيود لا يستطيع حلها فلا يستطيع الوصول الى كل الموجودات . ولذلك فما يستطيع العقل ادراكه محصور في العلة الثانوية والغايات الثانوية اي في الاسباب التي نراها مباشرة للسياط وفي النتائج التي نراها تنتج عنها . وقال ان غرض الفلسفة معرفة العلاقة بين النواميس الطبيعية وبين الظواهر المختلفة التي يظهر الكون بها وان الاختلاف بين العلم والفلسفة انما هو في درجة التعميم والتوحيد فكما ان العلم الواحد يضم قواعد جزئياته ويؤلف منها عملاً واحداً كذلك الفلسفة تضم قواعد العلوم كلها وتوحيدها اي تردّها الى صورة واحدة او الى اصل واحد شامل لها كلها . ففي الغاية القصوى التي يصل اليها بحث الانسان . يتدبّر هذا البحث بمشاهدة الحوادث او الظواهر الطبيعية وجمعها وضمها تحت قواعد تشملها ويتدرج في استنتاج الكليات من الجزئيات الى ان يصل الى الكليات الكبرى والقضايا العامة . فالمعارف الاولى معارف جزئية فاذا جمعت وبيّرت صارت علوماً . فالعلوم معارف مجمعة وبيّرة او موحدة بعض التوحيد فاذا جمعت هذه العلوم وانضمت تحت القواعد التي تشملها وتشترك فيها كلها فهي الفلسفة . ولنوضح ذلك بمثل

رأى الناس من قديم الزمان ان النبات الثابت في ارض محروثة يكون اخضر من النبات في جواره في ارض غير محروثة . ووجدوا بتكرار المشاهدات ان هذا الامر عام فبنوا عليه حكماً وقالوا ان حرث الارض يزيد نمو المزروعات . ولنفرض ان هذه هي الكلية الاولى او الحكم الاول

ورأوا أيضاً أن النبات النابت قرب مزارب البقر والغنم أو في مكان فيه شيء من زبلها يكون أغنى وأخصب من النبات الذي من نوعه وهو نابت بعيداً عن الزبل والسماد . ووجدوا بتكرار المشاهدات والتجارب أن هذا الأمر عام فحكوا أن الزبل أو السماد يزيد خصب الأرض وغو المزروعات . ولنفرض أن هذا هو الحكم الثاني أو الكلية الثانية . ثم بحثوا وتقصوا فوجدوا أن الخصب يزيد في الخالين بسبيل الاغذاء على النبات فوجدوا الحكيم تحت حكم واحد أو قضية واحدة كلية وهي أن تسهيل الاغذاء على النبات فوجدوا الحكيم تحت حكم واحد أو الاحكام تألف علم الزراعة أو علم الفلاحة

ووجدوا أيضاً أن الفحم أو الكربون يتحد بالكسجين الهواء وتولد من اتحادها حرارة وتكون منهما جسم آخر يتحد ببعض المواد ويكون منها املاحاً . وأن الكبريت يتحد بالكسجين الهواء وتولد من اتحادها حرارة وتكون بعضها جسم آخر يتحد ببعض المواد ويكون منها املاحاً . والنفسور يتحد بالكسجين الهواء وتولد من اتحادها حرارة وتكون منهما جسم آخر يتحد ببعض المواد ويكون منها املاحاً . فحكوا أن اتحاد المواد بالكسجين يولد حرارة وتكون من اتحادها بوجاهة أخرى لتتحد ببعض المواد وتكون املاحاً مثل كربونات الصودا وكبريتات الحديد وفضفات الجير . ورأوا أن القلوبات والحوامض والاملاح تجري على نسب محددة في مقدار ما فيها من العناصر المختلفة فقد يكون فيها وزن واحد من الاكسجين أو وزنان أو ثلاثة أو اربعة وتس على ذلك غيره من العناصر فقالوا ان المركبات الكيماوية اجسام منتظمة البناء فيها قوى محددة من الجذب والدفع لتألف بتوحيها . ومن هذين الحكيمين وامثالها تألف علم الكيمياء الواسع النطاق

ووجدوا ان الحرارة تمدد الاجسام والبرد يقلصها وان النور يسير في خطوط مستقيمة وينعكس عن السطوح كما تنعكس الاجسام المرنة واذا نفذت الاجسام الشفافة على خط غير عمودي مال الى الخط العمودي او مال عنه حسب كثافة الجسم الذي كان فيه والذي نفذ اليه وهلم جرا . وان الحرارة تجري بحري النور في سيرها وانكسارها وتجمعها وتفرقها فحكوا انها هي النور من قبيل واحد وانها درجات من الحركة في دقائق المادة او في دقائق الاثير كما ان الصوت حركة او تموج في دقائق الهواء او الاجسام المصونة . فجمعوا هذه المعارف وما ماثلها وألفوا منها علم الطبيعيات او علم الفاسقة الطبيعية . وتس على ذلك سائر العلوم والننون . فقام سنسر ونظر في العلوم كلها فراها مشتركة ويمكن ارجاع نوايسها الى ناموس واحد عام يشعلها كلها رأى مثلاً ان ظواهر الفلسفة الطبيعية يمكن ردها كلها الى فعل القوة

بالمادة وكذلك ظواهر الكيمياء والنيسولوجيا الحيوانية والنباتية . فأكثر من البحث والتحري الى ان ردّ العلوم كلها والظواهر الطبيعية كلها الى اصول قليلة او الى ناموس واحد وهذه هي فلسفته التي وحدت العلوم وجعلتها علماً واحداً او هي جزء من فلسفته لانه لم يكتف برد الاشياء الى اصولها والافعال الى مبادئها بالتجليل بل بين كيف تتركب الاشياء والافعال من اصولها ومبادئها بالتركيب وهذه هي الفلسفة التركيبية التي كان جلُّ بحثه فيها ويستخيل علينا ان نبين في مقالة واحدة او بضع مقالات كيفية التوصل الى توحيد العلوم

كلها فنقتصر الآن على ذكر النتائج التي وصل اليها او اعتمد عليها

فالنسبة الاولى التي اعتمد عليها هي ان القوة ثابتة اي لا تلتشى ولا تزيد ولا تنقص ولو تحولت من صورة الى اخرى . ويقال ان ذلك من البديهيات او الاوليات التي لا تحتاج الى دليل وعند سبنسر ان القوة هي غاية ما يمكن تصوّره وثبوتها قاعدة فلسفية ويعدّ كل الافعال الطبيعية تحت شكل المادة والحركة . واذا زالت القوة زال معها الشعور . وعنده ان ثبوت القوة يفرق اخبار الناس لان الاخبار مبني على ثبوت القوة فهو اساس الاخبار واساس كل العلوم لانها كلها اخبارات مبوبة ومنظمة فاذا حصلنا معارف الناس فصل اخيراً الى ثبوت القوة واذا اردنا ان نبينها ثانية وجب ان نبدي من ثبوت القوة . وارل فرغ يتنزع من ثبوت القوة ان النسبة بين انواع القوى المختلفة ثابتة اي ان نواميس الطبيعة ثابتة لا تتغير وان القوى تتغير من صورة الى اخرى ولكن مجموعها يبي واحد في كل الافعال سواء كانت طبيعية او كيميائية او عقلية او اجتماعية وان هذه الافعال كلها جارية على ناموس واحد يشملها كما ان كل فريق منها جار على ناموس خاص به . قال سبنسر في هذا المعنى ما ملخصه "نفرض ان الكيمياء والبيولوجيا والبيولوجي فسّر كل منهما ما يحدث في احتراق الشمعة وزلزلة الارض ونمو النبات بحسب قواعد علمه ووصل في التفسير الى غاية ما يصل اليه العلم فعمل ازلها احتراق الشمعة بتولد الحرارة والنور والتحليل دقائق الشمعة بانطلاق الحركة الكامنة بين دقائق المادة . وعمل الثاني زلزال الارض باشعاع الحرارة الداخلية منها وتقلصها وهبوط بعض اجزائها . وعمل الثالث نمو النبات بتأثير النور في حركة دقائقه . أفلا يطلب العقل تعليلاً يجمع هذه التعليلات المختلفة ويردها الى سبب واحد كما ان كل تعليل منها يجمع افعالاً مختلفة ويردها كلها الى فعل واحد . وهل تجري الفواعل الطبيعية المختلفة على سنة معلومة ولكن مجموعها لا يجري على سنة . ان هذه التغيرات المختلفة صناعية كانت او طبيعية آية او غير آية تفصل بينها لتسهيل النظر فيها ولكنها في الحقيقة غير منفصلة لانها كلها

تغيرات حادثة في عالم واحد وهي اجزاء من عمل واحد واسع النطاق . فما هو الشيء الذي يجمعها كلها على اختلاف اشكالها الظاهرة وتبايناتها . المادة ثابتة لا تتلاشى والحركة دائمة لا تتلاشى والقوة ثابتة لا تتلاشى ولكن القوة لتغير على الدوام والحركة تسير في اقل الجبهات مقاومة فما هو التاموس الذي ترجع اليه نوايس المادة والقوة هذا هو مطلب الفلسفة (١)

من هنا جعل سينسر ينظر في النوايس العامة التي تجري عليها المادة والقوة في توزيعها واعادة توزيعها اجمالاً وتفصيلاً لكي يردّ هذه الافعال كلها الى نظام معقول فقال ان لكل انواع الموجودات ولكل التراكيب التي توجد فيها تاريخاً وهذا التاريخ يشمل كل الزمن بين خروجها مما لا يدرك بالعقل وبين عودها اخيراً الى ما لا يدرك بالعقل . وهذه الافعال اي توزع المادة والقوة الذي يجري من حين صدورهما مما لا يدرك الى حين عودها الى ما لا يدرك ويشمل كل الدرجات التي تمرّان عليها وهما في الاحوال التي يدركها العقل — هذه الافعال تشمل عمليتين متضادتين الاول يظهر يجمع المادة واخراج القوة منها كما يحدث اذا تكاثف البخار فصار ماء فان الحرارة نظهر منه حينئذ . والثاني يامتصاص القوة وتفرق المادة كما يحدث بامتصاص الماء للحرارة وصبورته بخاراً متفرقاً الدقائق فالاول يحدث تماماً وتحدثاً والثاني يحدث انتشاراً وتخلخلاً وهذان الفعلان المتضادان هما الشرء والانحلال والعالم كله في تغير مستمر وكل ما يقع فيه من التغير كبيراً كان او صغيراً آلياً او غير الي طبيعياً كان او حيوانياً او عقلياً او اجتماعياً كل ذلك يردّ الى هذين الفعلين (٢)

ولم يقتصر سينسر على الاستقراء في التوصل الى هذه النتائج لاسيما وان الاستقراء يقصر عنها لان انه ناقص بالنسبة اليها ولكنه اعتمد على التماسك كما سيجي في نصارت نتائجها منطقية مبررة عند الذين يسلون بمقدماته ويعدهونها من البديهيات او العقائد الاولى . وسيأتي الكلام في الجزء التالي على الكيفية التي اتبعها في بحثه الى ان وصل الى اصول فلسفته

وقد يبادر الى الذهن من مدلول فلسفة سينسر " اذا وجدت المادة والقوة وبراً عليها الزمن الكافي تكون منهما كل ما يرى في هذا العالم " انه مادي وفلسفته مادية وهذا خطأ لانه لم يقل بتكون الموجودات من المادة فقط ولا انها تكونت من نفسها بل انه لم يحاول البحث عن العلة الاولى ولا عما وراء الطبيعة وذلك بمثابة التسليم بوجودها مع الحكم بتعجز العقل عن ادراكها

(٢) هذه الفترة الاخيرة ملخصة من مقالة للاستاذ

(١) كتاب المبادئ الاولى بند ١١

هدصن الاميركي في فلسفة سينسر